# قطار الليل السريـ .يـ .يـ .ر

## مرواة

◆ د. عمار أحمد *

الموصل

إلينا ونحن نتفاجأ يوميا بأننا ما زلنا على قيد الحياة!!

كان يرمم- كعادته- بعين عصيّة على النوم، والصحو، والبكاء، والابتسام ما تخلف من نظر الساهمين إلى المساء، والساهين فيه كذلك، وهم مذهولون من هول هذا الجحيم المدفون في ثنايا نهارات مذعورة من غرابة شيخوخة ضيائها، وكأنه يترنم!! وكان يرمّض مسارات البرد المترفة بفقدان الصوف، ونأي الصيف، في رحلة الحتوف إلى حيواتها، أليس هو من أوقد الدفق الدؤوب في طريق السخونة وطرائقها في النضوب؟ وجفف الدفء من عروق الهروب؟ أليس هو من حاول أن يغرق مؤرقه عندما وقفت

على حافة دجلة وانحنيت لأراه على صفحة الماء وفرّ ليتركه في غرقه؟ رغبة منه في إنهاء هذا الخصام العتيد؟.

يا هذا الذي لا يعرف أحد لحزنه ملمحا، ولا لخزيه سببا، يا سيد الهزائم المنتصرة على ذهنه- في ذهنه- وذهوله يثير الذهول حقا، لماذا قوّست أيامي، وتركتها طائعة للذبول، والحموضة، والاسوداد مثل أي حلم أيقن أنه لن يتحقق؟ يا رديف هزائمه، وتاريخه المعاق، لماذا تتألق ضغائنك، كلما اقتربنا مما كنا نتمنى، وكنت تتمنى اقترابنا من الانطفاء، إذا كان لا بد من عدمه؟

كنا إذا أردنا المكوث في زوايانا النيّرة بعشقنا، وبهذا الإصرار على الجمال، يؤطرنا طيفك الجاحظ، وسمرتك الآيلة إلى خريفها بصمتها الملغوم الذي صار جارحا ومؤسفا -فيما بعد- يؤطرنا بالكلمات التي كنت تستنفر أقصى طاقات إحساسك باكتمال النقص،وتقذفنا بها، كما كانت تحاصرنا العيون الخفية والآذان الواسعة، وكلاهما يورّم جموحنا بالكلمات!! ولكن سأستحلفك بموتك اليابس هذا: ألا تأخذك المتاهة إلى تلك المساحات الشاسعة من أعمارنا- تلك الشائخة بشبابها- وتجر عمرك من أذنه وتوبخكما توبيخا بهول المحنة الذي خلفتها، نعم هذه المحنة العصماء، أنا لا أنكر أني كنت أراود الأيام عن نفسها، ولكن ما يشفع لي، مقاصدي التي تشبه ولعي! نعم كنت أريدها أن تنجب أعمارا لانبكي فيها على أعمارنا، ولا يبكي علينا فيها أحد، كنت أرى فيها امرأة بحسن يحزن من فرطه، وكيف يكون الحال أقل والرائي هو، رديف تطلعاته، وسميّ غيميّته، وخساراته- فيما بعد- وجساراته- الـ (ما تزال). ألا يحق له، أن يبلل تجاعيد أيامه بالنحيب، ويتوشح بحزنه الدؤوب، وأن يكيل لك مثل هذا الغيظ يا ....؟ والريح تشحط تجاعيدها، وتؤرخ ككل يوم، كل يوم، كل ساعة، كل دقيـ...يـ...يـ...قـ...ـة، تناص الأحداث، وتراص الأوجاع، في محنة نهاية الـ مائة عام.

(تعال اقترب في- من هذا الصباح المترع بالقهوة، وهدوئي، والأخبار العاجلة التي تزف القنوات الفضائية نجاحها بالسبق من خلالها؛ لترف بأجنحة سوداء، تعال وهذا صباح مثقل بالخمول، والنحول المرصعين بذكراها، وذكراها سر سعادته التي لا تتجدد الا بتذكرها. تعال اقترب، يا اختصار الخسارات، والحسرات، والهفوات التي ما تفتأ تتكرر،على الرغم من النأي عن مسبباتها، نعم تعال اقترب مني أيضا أيها السؤال المبهم، المتهم، المتيّم بما يحزنني، وضع ساقا على ساق، واقرأ- بتركيز- المارين وهم يفوقون شمس هذا الصباح حذرا، وترددا. تعال نتصفح التقلبات الخرافية هذه، ونقلب الصفحات، بعد تقليب الصحف، يمينا وشمالا؛ للتأكد من عدم وجود ما يستحق أن نفتتح به نهارنا الذي سيتأثث بما يتأثث به يوميا، لأقل: بما تأثث كل غد، وليغفر لي النحاة، والنحاتون يزيلون عن الحجر كل ما ليس له علاقة بما يصبون إليه، وشكرا لبشار عبد الله ولكن لا النحاة ولا النحاتون يدلون بإعراب (عن) تحجر الأيام في المساحات الشاسعة على جوانب هذا الصباح النحيف من شدة تكرّره.)

لماذا لا تؤجل هذا الكلام إلى آخر المرواة؟

ما زال يسمع شظايا أصوات الأطفال الذين كان أكثرهم لا ينعم بألوان سعادة الثياب، إلا إذا لاح في فضاء أحاديث الكبار قوس عيد، يسمع شظايا أصواتهم في (العوجات) التي هجرها اللعب، وفي تلة (ريما) المترعة بالعيد، عيدنا ذاك؛ المدجج بـ (العيدانيات) وبوادر الرجولة، بالذهاب إلى مصاريف السوق، واستطعام حلاوة روائح المطبوخات، في مطعم (الشباب) قبل الاندساس الملهوف لرؤية الأبطال على صدر ليل صالة السينما المضيء، وروائح المطبوخات التي كانت ترفرف أمام رجوع الجائعين في العوجات لها هدف آخر فمنها- بها كانت تتسلل النساء إلى جيوب أزواجهن المتعبة ببقايا روائح مهنهم. ويضحك ملء نفسه من نفسه؛ لأنه تعجب من الشيخ (أبو العلا) عندما قال في وقت مبكر من عمري! إن النساء يدخلن بالأكل إلى معدات

الرجال؛ ليعبروا من هناك إلى قلوبهم، ويجرونهم جرا إلى غرف النوم شتاء، أو إلى (الكلآت)، تلك الغرف القماشية اللامعة على أسطح المنازل صيفا، ثم ينطفئوا عند احتدام اللحم.. بالعسل، ليبدأن اتقادا جديدا مع شمس صباحهن.

......ولكن شظايا الأصوات بددت كل ما تأثثت به الذاكرات في زمن التفاح، والفراولة، واللوز، والفراشة، والأقمار الملونة وهي تشع على البياض الخبيء( هذه رموزي رجاء) والملابس الشفافة التي لم تقلّ -أبدا- عذوبة عن موسيقا السعادة! وما تزال. يا سيد التعاسات في هذا الزمن الذي تثقل بشرته الثآليل، ويقوّس ظهره ثقل السكون، ويربّت الحزن عليه من حزنه عليه!! ألا كففت عن أغنياتي، وولعي بما يكمن في المساحة الشاسعة بين ماء الموسيقا، وجدب الجنون؟ أنا لا أريد الوقوف على ذكراك طويلا، ولا أريد الرجوع إلى ضياع الوقت في البحث في أسبابك، فأنا سميّ ولعي بما يربو على الوردة الثرثارة بصمتها، الثرة برشاقتها الملونة، لم أعد أقدر على التواطؤ معك في هذا الضرب من الائتلاف؛ لأنك لا تعرف عطر بهاء (عسل)ي، الذي تنبض به (بيبونا)ي، أنت تعالج الأكاذيب بالاختلاق، وأنا أعاود إلى مفازات الصدق بالتخليق، أووووووه أي فرق؟ أنت تضع عجزك وراءك، وأنا أضع عثراتي خلف ظهري. لماذا تحف بك العتمة كلما مشيت، وأنا تعج فضاءاتي بالموسيقا؟ سأجيب وأوفر عليك هذا الصمت الناطق بما لا تستطيع البوح به؛ لأنك ناء عن الوردة، وشحيح حب:

لأن الموسيقا لا تعرف الكذب، ولأنها ستعاني التجاعيد كلما اقتربت منه، تضاريس الموسيقا صقيلة، ولامعة، تأكد من ذلك -إن شئت- بالإصغاء إليها في العتمة. ولكن عفوا.. عفوا .. نسيت أن عينيك عاطلتين عن النور، وأذنيك لا تجيدان الإصغاء في العتمة، وإحساسك أشد عطلا من حواسك، ولعلي التمس لك الأعذار، فأنت عاطل أساسا عن ثلاثة أرباع مساحة الجمال في الحياة، أنت عاطل...... عن المرأة/ قل له اشرب قهوتك واخرجا معا، يدا بيد، وحزنا بحزن، وولعا بولع، ودعوها تتأنث بما يليق بهذا البهاء، وهذا النقاء، وهذا الشرود الذي يلفّني، وتتأثث بما يديم سطوتها على قلبه.... وعلى سلالم ارتقائها المهيب -عندما تقتحم عزلته- كل آيات الترحيب والأمن والسلام.

دعوه نافرا -كشعاع باسل أفلت من حشود الغيم في شتاء فاحم- يلتمع... ويرجح كفة الاحتمال دائما، ويناور على الوضوح دائما، ويستدرج أحلامه إلى بداياتها دائما .. دائما، إلى البدايات تلك، عندما كان كل شيء ينهض بالبريق، والبراءة، والفرح المترع بدأبه الذي يليق بطفل يفيق ليجد نفسه كل يوم أنه لم يكن مؤتلفا تماما/ كان يراقب ذلك القط المترف بشباطه، المستمتع بصوته المتورم الجذاب- بذائقتها- مؤقتا، ويدبّج له تاريخا حافلا باللحم، والقطط العابرات، ويفترض له قصة تعجن الحب بالحرب، والحزن بالفرح، والصوت بالماء، وتخلق منه قطا أسطوريا، تقطع سيرته نسل الفئران إذا تليت على مسامعهم المرهفة، وتدفع بالمهارة إلى أقصى نقطة في فضاء الروعة غير متناهي الروعة، ولكن قطة مسرعة مرت، عبرت الشارع بقفزتين، رافعة ذيلها الذي يؤدي دور السجادة المنفرشة عموديا نهاية الطاووس في الغرفة التي تضيء صدر الحوش، الطاووس الذي سقط خيطا فخيط... لعل العابرة المسرعة كانت تقصد أن تستدرج هذا البطل -السعيد بداية كل سنة- إلى مساحة لذتها ، إذا كانت قصدت ذلك فقد نجحت! لأنه فهم عبورها رسالة مفادها:

ليس بيني بينك أكثر من قفزتين.

كان يفكر في كتابة تاريخ سري لهذا العري المعلن على رؤوس الأشهاد، ويؤسس لفلسفة افتضاح التفاهة، ويسأل لمَ لمْ يعن المؤرخون والفلاسفة ببعدين كهذين، مع أنهما عنوانان لجوانب كثيرة في الحياة؟ حياتنا التي تتقافز مذعورة تارة، وحزينة دائما بين أصوات الانفجارات، وتتقزز من يافطات تبرير مأساتنا

داكنة الزرقة، التي فاجأتنا بأننا خسرنا مائة عام من الألفة! والموظفون بدرجة رئيس، وملك من الزعماء مازالوا مصرين على التظاهر في وسائل الإعلام بمظاهرات مليونية -كونهم مؤازرين بأفراد الحماية العتاة كليل شتوي مثخن بالرعود- ليطلقوا من خلال اليافطات المؤمّنة شعاراتهم: كلا.. كلا يا أحرار!!

كان يوما أعلن عن برده بيافطة بيضاء غطى بها تل الحب في (أنت موسيقاي...أو هذا البياض المحنك) وعن بطئه، بترتيب ثوااانيييه، ودقااائقه بثقل ورتاااابة تخنقااان. ولعل ابتسامة بيبونا وهي ترتب الوقت من فوضويته، وتزيل الحزن عن وجهه بوهج سحري تفيض به عيناها الثرثارتان، لعل ابتسامتها تلك هي الحيوية اللامعة الوحيدة في ذلك الانطفاء العتيد، نعم هي التي كانت تنسيه القلق الذي تعج به المغامرات في مكان كهذا.. ووقت كهذا، وتلون فضاءهما برائحة نبراتها الشهية، وتعيد إلى ذاكرته حقيقة أن هناك ما يستحق العناء، والحرص على مقاتلة الهباء وهو يغزو مخازن السرور، كانت ترطب سخونة انتظارها بعطر صوت فيروز:

يادارة دوري بينا
وظلي دوري بينا
......
......
واذا سألوا وين كنتو
وليش ما كبرتو انتو
بنقلن نسينا

وتنسيان أيتها (البيبونا).. الناعمة.. الناعسة.. الوحيدة.. العااااااطرة.

لكنه – يا فيروز- لا يدوم طويلا؛ لأننا نصحو بعد كل نسيان على موعد دام، عفوا، مواعيد مكتظة بما لم نتواعد معه، ولكنها تتوعدنا كل يوم، وفي كل مرة ندرأ الموعد بما يتيسر من وسائل الهروب النبيل، والآن.. يلوذ بصوتها البارد من سخونة ضجيج الذكريات، ويتعطر بذكراها بعد فتح الشبابيك؛ ليطرد عفونة خوف التهيؤات، ويلوّن فراغ هذا الصباح الشائخ بـ( سماعي نهاوند) ويعقّله بجنون تأليف جميل.

وما زال يراود العود عن أوتاره، ويعود إلى ريادة الصوت في توثيق الوجع على موسيقا زوال التوتر.

-وماذا تقصد بهذه الجملة؟!

لا تتدخلي، حديث النساء عن العود قاس أحيانا، ومثل لطافتهن أحيانا أكثر(عزلة).. إنصاتهن لغزله يذكره بفرحته الأولى عند استلامه أول رسالة حب دائما.. دائما / نعم رسالة الحب تلك، في الشهر الخامس من تلك السنة مترامية الجمال، في الأسبوع ما قبل الأخير من الامتحانات النهائية، للصف الخامس الابتدائي، في الساعة الثامنة والنصف من صباح ذلك اليوم المترع بما لم أجد ما يعبر عنه في ذلك الوقت، من تلك التي جمعت الكلمات كلها ووضعتها في فمي وأحكمت إسكاتي، دون أن أدري – تدري وظلت تفوح صورتها عطرا يراود أذنيّ وعينيّ، وظلت طفلة في ذاكرة ذاك الطفل الذي صار بعد ثلاثين عاما أو يزيد... طفلا بالغا، وظل. ما أجمل إنصاتهن، ولغة عيونهن التي يسمعها أحيانا أجمل بكثير من عزفه على العود.. عجيب!!

جده كان يأنف من الاقتراب من الاثنين!! النساء والعود بل قل الموسيقا، وأبوه يستهجن (العود) وربما كان يستهجنني أنا فقط؛ لعشقي له، ولخوفه مما سيقوله الأصدقاء بعد صلاة المغرب، أو العشاء، لأني طالما ضبطته متلبسا بسماع محمد عبد الوهاب ظهرا _الذي كنت أكرهه أكثر من كرهي لأم كلثوم- عندما كان يستعين على فراغ وقته بصوته، وألحانه، وربما كان يستدرج به النوم إلى عينيه، تعينه وشوشة الراديو؛ ويدندن معه ضابطا الوزن بدقة، أما موقفه من النساء فقد ظل غائما في ذاكرتي، مثل الكثير من قناعاته./ ارجع إلى صباحك، ورتب ارتباكه من تفخيخ النوايا وسط أمان الرغبات البيض، وروّج للضغينة رغبتك في امّحائها من الذاكرات والمخيّلات، ودروس الحب الزائفة، ومن زخارف تروس العداء.

وتمعن في تداول الأيام لمراتبها، يا هذا العاشق العتيد الذي يكاد (يطق) من فرط رهافته، وترنم بما يلوذ من الكلام بحنان صوتك الذي اصطاد امرأة تشبه فرادتها بالضبط!!! ودع الربيع يترنم بألوانه، وراقبه عن كثب، من فوق نظارة القراءة، ولملم أوصال موسيقاك الموزعة على الجذاذات التي أيبسها انزواء العود. رتّب - يا أخي- أوقاتك المبعثرة الناشفة، وكأنها ثكنات. احزن على الضحايا، واغزل من حزنك لحنا يدندنه العابرون المعطلون - بفتح الطاء- عند نقاط الحدود... أوووووه..... الليل عند نقاط الحدود ذو قدرة عجيبة على اجتثاث الموسيقا، والمرأة، والطفولة منك، اثبت فليل نقاط الحدود زائل، قاوم فليل" الحدائق" المحصنة بأكياس الرمل، الدائرة في الشوارع المحنطة بفقدان الأمان زائل، ولكن ..لا تدع الأفكار الشوكية تنمو في رحم القادم من أيامك. نعم دعه، مثلما سأطلب منك أن تدع الصيف يستعرض شبابه، وراقبه عن كثب، من فوق نظارة القراءة أيضا، وهو يغوي الأجساد بالعري، والعرق بالتصبب، والقرف بالتجلي، والعزوف عن الاستمتاع بنزيف الكتابة، دعه يربت على حزن الأنهار عندما تشكو غيابنا، فهي تنتظر انطفاءنا بها فرحا بمجيئه، ودع الخريف يهنأ بهدوئه ويرتب ماضيه، وشعره الأشيب، وتهيأ فيه (معه) لسبات اختياري ناشط، يقولون: إن الربيع رقص، والصيف طبل، والخريف ينفرد مثل آلة (تشلو) في استراحة أيام السنة.. لأني سأقولك لك: دجّج شتاءك بالكتابة، وحرّك مفاصل الوقت الباردة، برغبة فائرة بإرسال الكلام إلى أقاصي موسيقاه. يا تلك الأيام التي فرت الدقائق والساعات منها هلعا، هل كنت أياما حقا، أم أن الأوهام، نالت منك أيضا فصحوت على نهار بلا ضياء وليل بلا عتمة أو قمر؟/ يا يقيني الذي كاد يتحطم على جدران مهارة الوهم، غالبا ما كنت تؤرقني، وتدفعني إلى حافة الهيام، ونادرا ما كنت تأمن جانبي فتورق لي ساعات اليابسة وترفعني إلى برج بلوغ اخضرار المرام / جذاذة.

لا تجيد (العوجات) سوى الالتفاف على نفسها، والالتفات إلى البداية كلما سمح البناء، وهو يحرص على الاستقامة الواضحة في استدراج الالتفات إلى نهايات تتجدد كسعيه إلى ذاك النغم المستحيل، ولفافات التبغ تتناوب بين شفاهه، لتطفئ بنارها احتراقه، أو هكذا يظن المدخنون، ويعود إلى ساعات اللقاء الأولى، يستدعي قلقها، ويستمتع بما يتيسر له من بقايا كلام، أو ابتسامة ظن طويلا أنها ما تزال عالقة في الفضاء الضيق بين مصراعي باب دارها عندما اختلست دقائق ليراها، وكان - حينها- لا يعرف أنها اختلسها لتراه. ففي آراء الخامسة عشرة لا ذكر لرغبتهن فينا؛ لأن ذلك (عيب ... البنات غير شكل يمعود) كنّ يقتربن من الملائكية، والفوز بابتسامة من إحداهن نصر باهر، واعتراف يرفع الذي يفوز به إلى منصات التوسيم.

لطالما أخفق في تقصي آثار ما تلوكه أفواه النساء من حديث في النساء، وهو يعبق بدخان تبغه، وأدخنة الأخبار المتتالية من أعماق سوء الإدارة والحظ. فضاء الشرفة المطلة على الفراغ الناشط حتف أنف المنازل، المعطلة - ربما مؤقتا - عن الإطلال على ما يستحق بأن يصفه جميلا. ما الذي يتقصاه وكلما وصل إلى احتمال (يتملّص) مثل تملّصهن عندما يتناسين المرآة؛ مع أنها مدخلهن الأوسع، والأجمل إلى الفراش، وفشله أكبر في تقصي ما يلكنه من أحاديثهن في الرجال... لغة تشترك بها العيون، والخدود، وتشتبك الأصابع بالشفاه والألسن، ولا سلامة لأحد من سهام وصفهن، وتعليقاتهن التي تترتب بانسيابية الرشيقات منهن؛ لأن إحدى الجارات، التي تتردد كثيرا على أمه كانت بدينة، والأخريات لسن أنحف منها بما يجعلهن متميزات، ونادرا ما كان يرى من يصفها بـ (جت هذي الضعيفي!!)، نعم تلك البدينة هي الأكثر ترددا، والأعلى صوتا، وهي نادرة البدانة، وعندما كان يلثغ بالسين والصاد والزاي، والفهم، كان يتخيلها تشرب الماء بالجردل، وتلفّ ضبة الكرفس بأكبر رغيف خبز،

وفيما بعد- بملايين التهيؤات، صار يتخيل زوجها المعلم الأنيق، الشديد، القاسي، الفاهم، المخلص، يتخيله في خلوته بها؛ كأنه قلم بين دفتي دفتر سميك مفتوح، أو غصن شجرة على ظهر سلحفاة أبيض، وذي تضاريس، وليّن طبعا!! أيام اللثغ كان يحبها لأسباب، ويخاف منها لسببين: صوتها عند احتدام الموقف مع القلم أو الغصن، وعيناها مع أنهما كانتا عاديتين ..

يحبها:

*لأنها كانت تقبلني كلما وجدتني( أنوّر) فضاء مدخل الحوش المؤدي من، النوم والأكل إلى اللعب.

*ولأنها كانت تقول لأمي ابنك (يفتهم)، فهي لا تتكلم مثل الشديد ، القاسي، القلم الذي يقول لأبي سيكون له شأن هذا البطل!

*والأهم مما سبق أنها ما كانت تسمح لابنها، وابنتها (المضيئة) باللعب فوق السطح إلا معي.

ولكن جدته كانت تكرهها وتقول لأمه أخاف عليه من عينيها، وتخاف على إخوتي أيضا، وكم من مرة استرق النظر إليها في الليالي المعطرة باقتراب العيد، عندما تندمج مع أمه في سير نساء الجيران وبناتهن، ووضع اللمسات الأخيرة على حقائب الجوز والتمر العجينية الصغيرة، وملامح العيد الذي يقلن إنه وصل باب لكش وهاهو يطرقه، وسيبات في خان المفتي- الذي طالما نسج له صورا، وأحداثا، وليالي تفيض بالسحر- وسيصل صباحا. وما كان يعزز قولهن رؤيتي الشيخ أبو العلا يرتب نفسه، ويصقل (دشداته) فأراه ينتظره، ونتبجح بتحليلاتنا الصغيرة مثل أجسادنا، القاصرة مثل أعمارنا، ونبرر للشيخ ضرورة استعداده؛ لأن العيد سيأخذ موافقته في الدخول إلى بيوتنا.

نعم كان يسترق النظر بعيني جنيّ؛ ليجد سببا يجعل (ماما أوم)- التي أخافت الجنية في (على بالقوس إذا أيتها الجوائح!)- تخاف منها، فلم يجد، وإذا ما انتبهت تضحك، وتغطي ساقيها بعد لم انفراجهما، وهي تبسبس في أذن أمه ما يضحكها، ويجعلها تطلب منه انتظار العيد على الباب، فيشوب فرحة انتظاره حزنا ما زلت أجهله.

ولعه بابنتها المضيئة هو سبب كل تلك المعارك الداضمة، وجراح أناشيد الآلام، وبطولاته الفارهة في منع وصول الغزاة! الذين كانوا يتصببون من العوجات المؤدية للشيخ أبو العلا- العوجات مزاغل، ومزاريب عملاقة آنذاك- وكل الذين كانوا يرومون تحطيم باب لكش على أهله، واختطاف مضيئتي نعم كل تلك المعارك التي كانت تدور عندما يدرس واجباته اليومية خوفا من مسطرة المعلم اللماعة مثل صلعه، أو عندما تحمّمه أمه، أو في أثناء خلوته مع قصص الأطفال التي كان يقتنيها له أبوه إكراما له على موافقته على الحلاقة، في شارع النجفي الذي ظل -على مدى عقود مزخرفة بالأفراح، ومعلمة بالأحزان- عاطرا بنظافة أهل المدينة، وألوان ورق تغليف الكتب عند اقتراب فرحة موعد المدارس الغريبة، وبالعناوين الملونة لتلك المجلات التي طالما همّ بقضم قطعة من غلافها مثلما قضم الممحاة المعطرة .. آآآه يا ألفة تشكيلة تلك الروائح التي تنفثها دكاكين الحلويات والمكتبات... وأي سحر في فضاء عطر المكتبات! سحر لا يقل ندرة عن تلك الألوان السرية التي لا تعطر إلا في السرية التامة، إنها رغبة باعتراف لا يخلو من وحشية؛ لكنها وحشية غرابة العاشق اللطيفة/ ويرشف من فنجان قهوته، أو قهوة فنجانه أراه تعبيرا أدق، ويرفعه ذاك النبوغ الناعس في عينيها إلى بلوغ هدوء المرام.. تلوح بثبات من أقاصي الغياب، وتخاتل كأنها حلم باهر، وحائم في هذه المسافة المهولة بين الحلم واليقظة، يحاول أن يتقرب بوسائل تليق بهذه الغرابة المألوفة، ويناور على إحجامه، وجموحه:

فأكذب وأقول لتنشغل بحقائق كالأوهام، ولكني أعود فأصدق وأكتب: أشغل خيالك واصنع أوهاما كالحقائق، وبعد استغراق تؤازره سيكارة لم أدر حتى هذه اللحظة إن كانت من النوع الجيد أو الرديء، و( نتصل غدا حبيبي) والتجاء طارئ إلى العود .. عودي المزخرف بنقش أصابعي

وحنانه، أعود وأقول: شغّل مخيلتك واصنع حقائق مما يراه الآخرون أوهاما / جذاذة..

ويرشف من مرارتها المغلفة برغبته باستمرار هذا النسيم المفاجئ الذي تهديه المساحة المترامية خلف سهوم تل الحب، في غفلة من ضجيج الطبل وهو يملأ الفضاء سخونة تعززها أعمدة الدخان المشدودة إلى أعلى، التي يتصاعد خفوت انشدادها، وتترهل بالتكرار.. وهل ثمة داع لأن أقول.. كل مرة؟

يستهويها اللون البنفسجي، لا أعرف مدى دقة هذا الوصف؛ لأن حضورها في ذاكرتي مقترن بهذا اللون. كانت تأتلق به، ولمَ كانت ؟! ما زالت تأتلق به وتثير مكامن هذا الحزن النادر فيّ (عاجل ... عاجل.. مقتل سبعة عراقيين وجرح سبعة وعشرين آخرين فضلا عن إلحاق أضرار بعدد من المباني المجاورة) وتفتت خلوتي الهانئة بقهوتها وهدوئها واستعدادها لصعود سلالم موسيقية شاهقة الألحان.. إذن، يستهويه اللون البنفسجي ووروده على التنورة، قبل إسدال الحذر وبعد ؛ حذره من سطوة بهائها، وحذرها من وضعها ثقتها في من لا يستحقها..أوووه عيناها مثل أحزاني واسعة، وشائكة، وغامضة أحيانا. وهي جميلة جدا.. جدا كأنها من موسيقا عرائس النور.

حاول أن يضع جليد علاقاته مع الناس في كأس عزلته، و(يقشط) الصدأ عن مفاصل عاطلة عن المحبة والألفة، يقشطه عن مفاصل تعمل فيها الضغينة، وإحساس العاطلين عن المرأة، الملوّثين بالكدية، والتلفيق وطعن أقرب الأحباب. أولئك الذين ظلت الأرصفة تمشي تحتهم، وهم مشغولون بمكافأة السيد الرئيـ..يـ..ف(من الرأفة..طبعا!)، وظل يمشي على امتداد الأرصفة، وكلما تركهم رصيف أو شارع أو وقت، اكتظ- هو- بما يدفعه إلى ترك ما وصل إليه. كانت المسافة أثرا، والأثر اجتراحا، والاجتراح مرايا تطوق مساحات شاسعة من ماء/ وأبوه يريد ماء لزحلقة الشفاء

في جوفه، وأمه تريد ماء لغسل آثار جوعنا من الأواني/ وهو يريد ماء لإطفاء بقايا الحلويات، وعجبا كيف صار الماء حلما عصيا في نهر جاسم.. فيما بعد، أتدري لماذا؛ لأنه كان ناشفا من الحياة تماما!!

قال المدرس: رمز الماء $H_2O$، وسأل أحد الطلاب، بعد حديث سري عن التدخين ساعة وقوف (أبو الكيميا) في قاعة الدرس بهيبته كلها.... تخيّلوا. يا جماعة: أستاذ وما رمز الدخان؟ كتم غضبة: من يجيبه؟ وأضاف أنت. أنت (الآن) تعني أنا :

-أستاذ رمز الدخان ليس $H_2O$.

قمع الضحك المكبل- أصلا- فينا بسبب هيبته، قمعه بـ : غادر الصف.

وطرد صاحب السؤال. وهل لي سوى المغادرة يا معلمين. ربما ظلت أروقة المدرسة معلّمة بضحكاتنا الثرة تلك، أو ضلت ضحكاتنا طريق الخروج من تلك السعادة التي عزّ فراقها، وربما أسرفنا على أنفسنا بالسعادة، ولم ندّخر منها شيئا لليوم الأسود.. عفوا الأسبوع الأسود ..

عفوا الشهر الأسود.. أوووه السنة السوداء .. السنين السود .. العقود السود..والعقول السود أيضا، وفقدنا الإحساس بالعيون السود في بلدنا – يا بليغ- التي كانت تسترق النظر إلينا، وتسرق أنظارنا في رجوعاتها الناعسة، ظهرا، أو عصرا، من اليقظة للبنات. /دع القهوة وإطلالة جلستك على الشارع، والتل، ونتف الماضي التي مازالت ترصع أيامك، والحمد لله على النسيان سيد الذاكرات، الذي لولاه لفقدت العزيز والأغلى من ذكرياتك/ جذاذة.

ولكن هل أقول شكرا لهذه التعاسة التي جعلتني حبيس اللحظات التي حبسها جمالها فيّ. نحن بقايا العقود المترهلة قبل الأوان، باغتنا فوات الأوان، ولم نكن نعـــرف أن الرتابة- مع كل إحساسنا ببطئها- سريعة إلى هذا الحد. وبوابة نركال التي ترسم على جبينها موكب الموت، تبدو اليوم خائفة جدا من هذا الموت، وخوف الأمهات الآن يطال كل الأوقات، ويجعلها مسكونة بمرض الإحساس بفقدان الوقت، أو مرض فقدان الإحساس بالوقت، كل منهما أخطر من الثاني، ولكننا ما زلنا نأكل، ونشرب، ونخرج، ونتخرج، ونزور ونتزوج ونكتب ويرسم النهار التعب بدقة بارعين على أرواحنا، ولا نكلّ من الرغبة، وكأننا زوار في هذا الظرف الناشف من ماء الاستمرار، ألسنا مخطئين- مصيبين من وجهة نظر ما!! كيف يقدر على التلويح للصبر مودعا بكف، وللجزع المائع بكف، ويناور على الهزيمة والانتصار معا، ويناصر الضحية والجلاد، ويعاقب الجلاد والضحية.. وإذا ما نصرته استطاعته على ذلك كله، فلم لا يقاطعه ويمنحه فرصة الانتصار على تفوقه..فهو ..هو رديف تطلعاته، وأعداؤه في مطحنة عباءات المنصة العالية يعرفون ذلك جيدا .. والوهم وهم في أحسن حالاته!!

وحياة صديق أبيه كانت وهما أيضا، فبعد ثلاثين سنة من زواجه استطاع أن يتأكد من أنه غير قادر على الإنجاب، وبعد تأكده بثلاثين يوما حملت زوجته في ليلة سماوية كما كان يسميها، واستطاع أن يلصق الفرح بحياته مدة ثلاثين يوما، حتى فكر أن يبدل اسمه بسعيد الفرحان وواظب على حلاقة وجهه، وصبغ شعره الذي طالما تندر أبي عليه بقوله: كان رأسا فحولّته إلى حذاء!! أفرغ ثلاثين سنة من عمره في مجاري الانتظار. تحولت أيامه طيلة الثلاثين الفارغة – من وجهة نظره- إلى نهارات يعوزها ضوء يريده هو؛ لتدارك عتمتها، بينما يعاني قلبه تخمة في الحزن، صار كل ذلك قبل أن يغرقوا أهل محلة الشيخ أبو العلا بالحزن عليهم جميعا! ولكن أثقل أنواع الحزن ذاك الذي لا تعرف له سببا، تفتش في زوايا عقلك ونفسك، وتنبش قلبك ولا سبب يفك اللثام عن وجهه ويقول أنا.. ولكن أي قدر هذا الذي فرش صبح – الفرحان- بحفيف رمادي.. ونثر فرحه تحت حجر مطحنة النهاية تلك!!

تا تا تا/ تا تا تا/ تا تا/ تا تا تتّي تتّي تا، أين سمعها من قبل؟ وأي ارتباك هذا الذي ينسيه جملة كهذه، إنها من الكوكب، ولكن أين؟ حاول أن يتذكر، وما أن كاد ،حتى سحق بائع الغاز اللحن كله من ذاكرته. شارع الجامعة كعادته يعج بالأغاني، سواء التي تفيض بها المقاهي، أو محلات التسجيل، ولكن ثمة ألحانا لا مناص من اختزانها. قال أحد أصدقاء عمليات تهريب الكتب من المدرسة قبل هروبنا منها- ذلك الذي غرق في الموسيقا تماما؛ لأنه أجاد العوم فيها- في لحظات انفلات مخيلاتي: أظن أن للذاكرات وسائلها في حماية مخازنها من الفايروسات اللحنية، بما أستطيع أن أسميه (melody anti- virus)، وأعتقد أن الذين تربوا لحنيا على السنباطي، عبد الوهاب، والموجي، وعباس جميل، وتلك الأعمال اللحنية والتأليفية العالمية، وتحصنوا بأصوات مثل أم كلثوم وأبو كلثوم فخري، وفيروز، والعندليب، والغزالي، امتلكوا ذاتيا هذه الحماية، وقفز فجأة على طاولة القراءة التي لا نجتمع عليها، إلا بعد اقتراب فوضى الكتب المنهجية قبيل الامتحانات،

وقال:

-اقتراح- ولوح بيديه طالبا السكوت- اقتراح: على النخبة من الأطباء، والموسيقيين، والحاسوبيين، التآزر لحماية النوع البشري من الاندثار الموسيقي، وطغيان الأعمال الهابطة، والمقلدة- بكسر اللام- بما يجعلهم يتقيأون عند سماع أعمال من هذا النوع أو المستوى، ويولّد عندهم رد فعل مضادا ومزمنا، ضدها، وذلك من خلال تغذية أدمغة الأطفال في الشهور الأولى من أعمارهم، بهذا الـ(melody anti- virus) وهو عبارة عن منتخبات من الأعمال العربية والعالمية التي تتفق النخبة على تميزها، ورقيها. هذا كلامه بالنص.

ومقهى (أبو إيلاف) الذي لا يسميه أحد باسمه ما زال يروّج للماضي نكاية بهذا الحاضر العاثر،( مقهى الكرم ) هذا المبنى الذي يقبع تحت هذا الحر المعفو من التخفيف، والحوارات الساخنة، مازالت عنوانا لخارجين على القوانين، يتزحلقون على الأيام التي يرونها لامعة ستأتي، نعم الأيام التي تتزحلق من تحت آخرين أوقفهم انشغالهم بإيقاف الزمن، وهو غير منشغل بسكونهم على الإطلاق، وقد نكون أول دولة بالعالم تسمح لحمار بالوقوف أمام بوابة الجامعة، في وقت يختنق به الشارع من الحر والازدحام، هذه اللقطة حصلت أمامي الآن..عفوا./ أي قوة كامنة في هذه البقع التي نسميها المكان، كيف تقدر هذه البقعة محدودة المساحة على أن تجمع كل هذا الاختلاف والتمايز، تعال معي وانظر من هذه الغيمة الساحرة بطيرانها الواقف- كأنها تائهة من شتاء ما- انظر منها إلى حزم الكلام المنبعثة من مقهى(أبو إيلاف)، كيف له أن يكون!! ولطالما تخيلت انفجاره من هول التقاطع:

-والله هذا العامل (خوش) ولد.

-يا أخي.. الحرارة غير طبيعية.. وفي الشتاء برد غير طبيعي

-ولكن الـ تويوتا نجحت.

-والله صحيح الأسئلة كانت موت أحمر.

-لا .. لا أصفر أريده أصفر أخي لا تشوه كل ما فعلناه رجاء.

-الشبكة ضعيفة..ماكو تغطية

-فنجاني قهوة وماء يا ..

بعد آخر لقاء بالغارق في موسيقاه- كان لقاء سريعا ومفاجئا، سافر بعده، وانقطعت أخباره -ولا أستبعد أنه التحق بماجد في (بيبونا)- كما ينقطع الصوت في اتصالات الأغراب المضنية، انقطاع حزين وباهض، بعد ذلك اللقاء تذكر ما لا ينسى، وانداح البرد في صيف صارخ، وكأنه غطس في حوض أمان ساعة إحساس بالفقد، لقد تذكر... مكتبة الدخان!!

في غفلة من نسيج التعاسات- الذي يسميه الآخرون زمنا- ومشاهد أسراب حزن القتلى في سماء الرحيل ( اختر تاريخا لهذا الوصف مبتدئا بالعام 1980وحتى -13تموز- 2005، واطمئن لدقته !!) هيأ غرفة الاستقبال، للتهيؤ لاستقبال قلق الامتحانات، وتسريبه بما يشبه الدرس، وقال: سأريكم مكتبة أبي النادرة. ولاقى عرضه استهجان المشدودين إلى اغتنام فرصة ضياع الوقت بالفيديو أو المجلات الموبوءة بالشعر!!حسب وصف أبيه، وليس (بالكآبة!!) حسب توصيف من اشترى سيارة أجرة أنجبت له بيتا وسيارة أخرى، وزوجة، وأطفال، ودفعت بطنه إلى أمام قليلا، بعد التخرج في الخدمة الإلزامية، أيضا، فقال الغارق: مكتبة الدخان. تهيأت لإطفاء الضوء، وهيأت أنفي للروائح، وعيني لألوان تستحق الانتباه، وتعجب من غرابة اهتمام الأغنياء أحيانا، بما لا يجدر الاهتمام به، ولكن ما جعله خارج دائرة الاستهجان التام، تعدد المكتبات في منزله، مكتبة فيديو، مكتبة صور، وأخرى للطوابع، ورابعة للموسيقا، وهي التي كانت سببا في غرق ابنه فيها؛ لأن من مبادئ أبيه: لا نظافة للروح بلا إيمان، وبلا غطس دائم في بحور الموسيقا، وكان يقول: كل الغطس نزول فقط، والغطس فيها صعود على السلالم، مرافق للنزول،

وكنت أتخيلها كرة كبيرة مائجة، وملونة، وأثيرية، واعترف بأنه أول من أراني الموسيقا، وأوقفني بحذر على رمال شواطئها المرصعة بالأنغام الفيروزية.

-متى ستطفئ الضوء

أي ضوء ....

مكتبة الدخان هذه.. وأشار إلى مكتبة منسوجة بالأرابيسك، فتحها على أكداس من علب السيكائر! قد يكون أبوه جمع أنواعها كافة!! معروف عنه ولعه بتاريخ الأمم، والأفكار، والنساء، والحروب، وتاريخ الملوك بالصور، سواء أكانت حقيقية حظيت بثورة الكاميرات، أو مفترضة حبستها ريشة طائعة لخيال رسام ، أعداد كبيرة من العلب، والعناوين، والألوان، ومصادر الصناعة.. والمفاجأة التي أبطلت مكتبة الدخان من دخانها، وألوانها، هي تلك اليافطة، النابضة بخط الثلث:

أفضل سيكارة- على الإطلاق- تلك التي ... لن أدخنها.

يصر أبوه على تعاطي العراقيين القدماء، التدخين، ويؤكد بثقة وجود رسوم سومرية وآشورية، وبابلية، وأكدية تثبت تعاطيهم الدخان، وتصديره إلى العالم عبر الغزوات العظيمة، التي كانوا يشنونها، لفرض بلل جنون السيطرة على اليابسة، ويصر على أن أبشع وسيلة تعذيب اكتشفها المولعون بالتعذيب، هي إجبار السجين على تعاطي سيكارة كاملة في اليوم، وأقول في سري أي مخيلة في هذا المخ، ولم يسمح لنا بأن نستغرب من هذا التعذيب اللطيف !! فقال: كانت سيكارة بغلظ هذه الشجرة- إحدى المعمرات- يقول إن جده زرعها- ولا تقولوا كيف يمسك بها! أو يضعها بين شفتيه! كانوا يدخلون السجين في غرفة من غرف السجن القصية، بعد أن يربطوه بحبل، ويحرقونها؛ ليبقى داخلها دقيقة أو أكثر، أي ما يضمن اضطراره على الاستنشاق، ويسحبوه بقوة. ولكن ما علاقة هذا بالتدخين؟ إنه نوع من أنواع الضغط، وهو يشبه تغطيس السجين في حوض ماء، وإخراجه بقوة، كما نرى في الأفلام، وقال سائق التاكسي: أو كما يتحدث الأصدقاء الذين ظنوا أنهم يحلمون من هول ما عاشوه في السجون! مع مرض أفلام السجانين، ليست المشكلة، في الاستنشاق لحظة ما قبل السحب، ولكنها في الإدمان على الدخان، فبعد خروجه من السجن، يقول عنه السومريون: تلبسه سيد الدخان من الجان، وسيظل دائخا، حتى يخرج منه. ويقول الآشوريون: هذا الدخان لعنة من الملوك العظام، لتفتيت عظام المتطاولين عليهم من المملوكين/ والملكة – بفتح اللام- جناح والإدمان على التطلع جناح في هذا الفضاء المؤجل بتجدده، والمتدرج – على الأغلب- بمراتب النبوغ في ماراثون الرياح، تسابق من؟! ونحن نؤجل حيواتنا الشخصية منذ زمن التدخين الجنيّ، إلى ليلنا هذا!! الذي (نتخوّع) فيه ولا نتقيأ، ونزيد من احتساء همومنا بلا ثلج!!.. وحر المحنة أي حر.. (عاجل .. عاجل .. تدمير سترايكر، ومقتل جندي أمريكي، والأمريكان يفرضون طوقا أمنيا!حول جنودهم، ( ليس أمنيّا مع الشكر للمصحح اللغوي) حول مكان الحادث)/ أهذا ليل، وليلها ليل؟ تنضح صفاء وهي تداري ابتسامة بعد إعجابي المفروش على المسافة بين فمي وأذنها، فيفضحها وهج أنوثتها العصي على المداراة، فتداري عينيها بالالتفات، فيلتفت الوقت بي نحوها:

استريحي على تعبي
ورتقي حزنك بأفراحي
يا سر الحزن الوردي
يا لحن عازف القيثار الأبدي
يا نور القصر بعدما تغيب الشمس
ونبض النصر الأبدي على أعداء
الملك الشاب عامور – دمحا×
أنت حبيبته، قبل منتصف السنة
في احتفالات المملكة بعودة نبض الربيع
عندما يغطي حزن الأرض فرح البيبون
الذي منحته اسمك العظيم

بعد الهروب من القصر في فضاءات
أنت موسيقاي
عندما احتفت بك العذارى
الطاعنات بالحرمان/ المطعونات بأطواق العطش
قرب الآبار/ أو في آبار القريبين
لك مني الحب، والفوز بالحرب، كما يليق بهذا البهاء العظيم.

(هذا النص لمحارب وشاعر قديم، يناجي به بي- أبو- نان.. بعد سنين من اختفائها المهيب، و "أنت وموسيقاي ...." مرواة سابقة وهي مصدر الخبر، وثمة رواية تقول إن الملك الشاب هو عازف القيثار الهارب نفسه.. لم يدقق أحد صحتها بعد.)

يغمرها الحزن فتضحك، ويغمز لها الوقت فتبتسم، تلك التي كانت قمرا ناحلا يضج حوله الليل بالبهاء! هي التي كانت تروض أحزاني بما يتيسر لها من الابتسام، وانسياب القامة، واتساع العينين الكفيل باستدراجي إلى فضاءات الحزن النبيل، هي التي أوقدت فيه جذوة الرفض، والانفلات من المتفق عليه في منابر البيوت، والمنازل ما تزال تعب من الدخان والشظايا، والقنوت، والسكون ملمحها الرمادي، فضلا على فقدان الذاكرة.

نعم فقد شارع الدواسة ذاكرته، وباب جديد نسي العيد، بغياب المراجيح من (تلة ريمة) وريمة امرأة لم تنل حظها من سعادتهما! بسبب فقدانها من كانت تسميه سبع الباب- باب جديد- وإذا ما كتب الاسم عروضيا يكون: بابج ديد. بتسكين الباء الثانية، وتسكين الجيم، وكسر الدال، وتسكين الياء، والدال.

اسم أطلق باللهجة العامية وأصله (الباب الجديد). كان اسم المنطقة الشعبية هذه، الواقعة في قلب الموصل تقريبا، (باب الموت) أيام الحكم العثماني، وحتى جلاء القوات البريطانية عن الأرض فقط! أما اسم بابج ديد، فهي تسمية مختصرة بحكم تداول الناس اليومي من جهة، وموقف أهالي الموصل من التسمية الجديدة وهي (باب الحب الجديد) فعلى هذا الباب نزف سبع، وهو أحد رجالات مدينة الموصل الشعبية آنذاك، بعد أن هاجم مجموعة من العسكريين الإنكليز، بعصا غليظة ذات رأس مدبب، واستطاع أن يقتل منهم واحدا، ويفر بنصره الجريح، عائدا إلى التلة الصغيرة التي تتوسط هذا الحي الشعبي، وكانت ريمة راجعة إلى البيت، محملة بـ (خاطوغ) - الواو هنا تقرأ كما يقرأ حرف(O) في الإنكليزية، وملابس ما بعد الغسل؛ لأن النساء الموصليات كن يغسلن الملابس في فرصة التحرر على حافة دجلة، ويضربن المغسولات بقطعة خشبية مستطيلة تنتهي بمقبض، لا

يتجاوز طوله ثلاثين سنتمترا تعرف بـ (الخاطوغ)؛ لتلقين الأوساخ درسا في النظافة، و(ماما أوم) تقول: الخاطوغ يضرب (فريش الأقرع)حرف القاف قرأ كما يقرأ في كلمة قلب التي ينطقها البغداديون بالعامية، هذا الخاطوغ يضربه من بعيد؛ ليكف عن قلة حيائه. وهو شخصية كانت النساء تؤكد ظهورها، كلما تأخرن في مهرجان الغسيل على مشارف هدوء دجلة وهو يستعد لاحتضان المساء، الذي سيحتضن بدوره جلسات الشباب المكتظة بالشايات، وبأمنياتهم، وستزخرفه أضواء (اللمبات) والفوانيس، التي تضفي ألوانا على أحاديث الصبايا، وفريش يعاكس النساء، ويغيضهن بحركات جنسية يمقتنها في العلن! ويخفين وجوهن بوجهه الصغير، وطوله الذي لا يتجاوز خاطوغين.. (يخوّف!!)، ويضرب السحر الذي تدبره الحسّادات في ملابس أزواجهن الخارجية، والداخلية وهي الأهم، وملابسهن أيضا. واختفى فريش مع وصول الماء والكهرباء إلى البيوت.

رأت ريما السبع جريحا، وخبأته بعد الإسراع بالمسير خلف باب الحوش الذي صار منطقة مهملة يرى أهالي (بابج ديد) أنها مصدر مخاوف الأطفال، تأتي مخاوف الأطفال مما يسمعونه من الكبار! ومعين فتّاح الفال- بفتح الميم- تذكرني بمرارة ساعات معين جبهة- يسخّر من خلاله أعوانه ممن يقطنون باطن الأرض كما كان يعتقد الموصليون .. بابج ديد أنموذجا!، فضلا على انفتاحه على مقبرة. نعم جرحته نيران الإنكليز، الذين دخلوا من الجنوب، عندما ظنوا أن الشمس لن تغيب على مستعـ(مرا- بدا) تهم، واليوم دخلوا من الجنوب أيضا، و(ريما) جرحت غياب موضوع المرأة عن حياته/ في حياته جرحا بليغا، وكأن صورتها مسحت ذاكرته، وصارت الذاكرة كلها. لم ينس استلالها الخاطوغ، وهي ترافقه وتتلفت لحين إخفائه. اندمل جرحه، ورحل الإنكليز، وظلت ملاكا يكركر حسنا على التلة. أقام الأهالي لزفافهما احتفالا لم تشهده منطقة باب الموت من قبل، وكان يسأل السبع نفسه، ترى هل يصلح هذا الحذاء للزواج؟ كان سعيدا بالتحدث السري بالحب مع الأصدقاء، وفرحا بقدومه النبيل إلى حياته، وأصر أن تكون الدبكات، ووليمة العشاء بجوار الباب نفسه الذي جرح فيه، لينجرح بها، وفي تلك الحفلة ألقى شاعر قصيدة ورد فيها باب الحب، وشاعت التسمية، إلا أن هذه التسمية كانت تثير خجلها حتى بعد مرور شهور على زواجها، والأهالي لم يسبق لهم أن تداولوا اسم الحب علنا، وباتفاق لم يعقدوه، صارت التسمية الباب الجديد، الذي تحول إلى بابج ديد. (ريماتي) هكذا كان يلاطفها، لم يثمر زواجها من السبع أبناء أو بنات، والسبع صرعه مرض لم يعرف له علاج، وظلت مخلصة لذكراه، تكرر لقاء التلة الجريح، الذي صار ذكرى يغلفها غبار حزن الفقد، وتلطف تصحر حزنها بالبكاء وحدها.

وقبل أحد الأعياد بأسابيع أعدت، مراجيح، ودواليب هواء، ونصبتها على التلة، ونسجت فضاءها بالورق الملون وبفرحها، وأعدت طبالا، وزمّارا، فتزخرفت التلة بالأطفال بعد صلاة العيد، وهي تنظر من شباك غرفتها على ألوان فرحهم المتناثر كأمنيات تلمع. كانت تلك الساعات هي الساعات الأولى لذلك الاختلاف في شكل العيد في حياة أطفال الموصل، وعيدا بعد عيد يزداد عدد المراجيح في مناطق مختلفة من الموصل، ولكن ظلت تلة ريمة ذات فضاء مشبع بالحب، ولا عيد لطفل لم يقضه على التلة، حتى إنشاء مدينة الألعاب، تلة ريما الكهربائية!!/ وبعد كل ما جرى هل ثمة جديد؟ كان يناور على الوقيعة، ويلتمس للعاطلين، سبعين ألف فشل، ولا يكل من التلذذ بفشله؛ لأنه الخطوة الأوثق، في هذه الطريق العصية على الاتضاح، وكيف لا وهو يتفاجأ بأن للأمكنة ذاكرات تنسى، باب جديد، الطفولة بملابس الأعياد، والدواسة، أناقة الفتوة والشباب، وسعادة المستطيل المضيء في صدر غرناطة،

وأضواء صوت فريد الأطرش في ليل أشبيلية، وترف العندليب في استراحات الأندلس. يعرفها تماما ، ولكن من أين يأتي هذا الإحساس بأنهما لم يعرفاني.. ها... أأكون تغيرت إلى هذا الحد؟ أيكون هذا البياض الحزين في رأسي، قد سوّد ذاكرة الدواسة، وأحالني إلى طارق طارئ على ذاكرة الباب؟ أيصرخ ويقول من سبب هذا الغياب؛ ليسبّه مثلا؟ كانت الأمنيات تتراكض أمام يومه، ويتهور في الاندفاع صوبها، ويلاوي ذراع المساء، وهو ينسدل على النهار، يريد إضاءة أطول لعتمة رؤيته، فكل ما حوله مناخ حافل بفرح الخفافيش بالصيف، وأنت أيضا لا تسألي عن السبب، وتعالي غلّفي الوقت بعطر صمتك الذي لا يقل نبوغا عن صوتك، وامنعي عني فيض الدخان هذا، ورتبي شظايا النهار في متحف أملنا التاريخي، وأرّخي لهذا الصبر الاستثنائي، في هذا المكان الاستثنائي، والوقت الاستثنائي، ورممي معي في الجذاذة الأولى، وجدّي معي وقتا أطول، لنحتمي بنا: من هذا الغياب البطيء الذي يفاجئنا كل ساعة بأن تعودنا عليه ليس إلا غطس في دوامة الغياب، ومنا كذلك. أكتب:

اقرأ..

يا سيدي الذي يكبل سعادتي عما يعز على الآخرين أن ينالوا قسطا منها.

يا باسطا وهجك على هذه الساعات الكافرة برغيف خبز الأمن، زمن شحة تأمين الخبز.

يا رافعا سقف المحبة إلى مدى يعز بلوغه، حين تتقطع أجنحة القلوب.

أغثني من سقط اللسان، والخيال، والسقوط في مغبة الأفول.

وارفع عن يومي هذا في مكاني هذا، هذا الدخان.

ومكّنّي من رفع المداخن، لئلا يغرق الساهمون- الساهون

في متاهات النضوب، ونظائر الغياب.. ما أقساها.

وله في دأبه أمنية تتعطر بتأجلها، حرصا منها على:

1. تكررها

2. عدم التيبس في هذا الوقت الغارق بعطشه.

ويمشي، ويسهو، ويصحو، ويسهر، ويستحضر كلامها وألبستها، وحديثها، وحدائق مثولها الرقيق أمام صحرائي، وحداثة وجهها الدائمة، ويناجي؛ لينجو من ذوبان عظيم في هذا النشاف:

لماذا لا تترفق رهافتك بقسوة حبي، ولماذا لا تبعدين استرخاء بهائك عن توتر تعبي، ألأني أعلق أحزاني يوميا على حبل ضاج بالنحيب، والدهشة، ظننت أني مشنوق بحبالك؟ أنا فاقد الانطفاء في مهرجان العتمة، واحتدام الأنين نعم أنا، فمن (يدليني) أو يدليني بحبل ضوء متين؟.. / جذاذة

هو الاحتراز المشذب مثل ولعه وعشقه، هو الذي أطلق فيها الأنوثة، والبكاء من فرط الحب، والموسيقا، نعم هي التماعات من موسيقاي المؤجلة، المؤللة بمشاغل الكلام، فلماذا لا يكون مشمولا بسفر اللعنة والملام، أو الغناء مثلا؟ يحنّ إليها ويفز عندما يراها بقربه، لكن ثمة عائقا ما، يشبه تعثر قلقه المعتاد في مشيه صوب بياض اليقين. لم أوراقه، للمرة الأخيرة في يومه ذاك، وأجّل هذا العناء اليومي الجميل- هو يصفه بالجميل- كما يؤجل كل مرة، التأسيس لفلسفة التفاهة، ويتعذر بالتشبع بها، فلو كانت مفقودة لبحث عنها، وكلما رأى الطائرات يؤجل الحديث عن العري، للسبب ذاته. أكل، وشرب، وصفن:

– سأسافر.

طموحه مثل أطماعه في أن ينأى عن ماء الخديعة، والخيانة، والتلفيق، من أجل أن يرد – وحيدا- ورودا أشف، ويلتمع ليرتفع.. أكثر، ويترك القمة لمكتفين أقل قناعة.هو الذي تكرره أوجاعه ولا تكل، وتمرره أيامه بمنزلقات بريئة وخبيثة، ولا تمل، ولا يكل ولا يمل من تكرار هفواته النبيلة تلك، وتمريره كرات غير ملونة، ولا شفافة بممرات

يبطنها زيت رجاجة، ومهابة. هاهو الآن يشرف على بعيدين وأكثر بعدا... يرى البعيدين دوائر سوداء، وأخرى يشوبها بياض يتنكر، وصلعان حائرين ملغومين، والخيانة المؤجلة، بعدما اكتشفوا مشطا( كان جارحا) وظلوا متأزمين.. يمر غيمة، وكلما انقضى عصر عاد لينظر إلى أسفل، فيرى أهل القمة قانعين أيضا، وهادئين، وإذا ما رفعوا رؤوسهم، رأوه وهجا آخر فيضحك ملء وهجه، وافتراقه، ليقول: أنا لست نبيلا. فيسمع صوتا متناسقا، ومتآلفا، يرتقي كضوء عظيم هادئ :

عامور – دم – حا.. يا سيد الرماح، والألواح
يا هذا الصوت المضيء الملثم بحزنه
يا سيد الهفوات.. يا عابر العثرات
يا حاملا لحنا شفيفا لسنا ندريه
ثقّب بضوئك، وضوعك ظلام الكلام
واجرح ليلنا هذا...

هكذا رددوا جميعا صامتين، مبتهلين؛ شيوخا، وتلاميذ، ونسّاخين، ونسّاجين، وأبناء سبيل.. ولكنهم إذا ما جهروا.. قذفوه – في مجالسهم البعيدة عن الأعين والأذان– بمجانيق كلمات مدججة بأوصاف لاهبة.. تراه، ولا تبلغه.

ثم أطفئ الضوء/ ويصحو على صوت أمه أيضا، ذلك الصوت الذي ينطفئ عند إطفائها النور، وهو الذي ينبه الديكة إلى واجبها بإعلان ولوج الليل تحت ستائر الصباح. وهذا الصباح مقوس– يوميا– بحكم نهاية الشباك المشرقي، ذي اللمسة العربية الأليفة، الشباك المطل على سعال العابرين إلى العمل قبل نهاية الخريف المزين بعباءته العجاج، وعمامته الغيم أحيانا، ويخرج الفراغ الدؤوب إلى صباحه الخامل كذلك مثل ريح بائسة تلملم –وئيدة الخطى– حظها من العلب الفارغة، والأكياس، والأمنيات اليابسة، ومن بقايا أغان أو نصوص بائسة، انطفأت فيها أصوات نقود الأبواق، وبقايا أنفاس تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد انطفاء اللهاث، ريح شائخة تبحث عن بقايا اختلاف في محاولة يائسة!! يسد الشباك قبل الستارة؛ ليلغي تقوس أعلى الضوء، ويقوّس جسده استعدادا لاستقامة نهوضه من فراشه الذي لمّا يزل– على الرغم من فورة هذا التكرار– ينضح برؤى خرساء.

**هوامش**

*الدكتور عمار أحمد يحاول الخروج من المعاطف التقليدية للأدب، وبدأ مشروعه عام 1993، في بيان الغيمة المنشور في جريدة الحدباء آنذاك، وقوبل مشروعه باستهجان كبير، حتى أن أحد النقاد تندر في رده في الجريدة نفسها متهما الدكتور عمار بأنه أحد المخربين الثقافيين، استمرَّ إصرار الدكتور عمَّار والمنبثق من قناعة تامة بخصوصية التجديد في الأداء الإبداعي، ونشرَ أول نص في جريدة بابل البغدادية عام 1994، بعنوان فرعي هو (كتابة غيميارية) وهو عنوان منحوت من (الغيمة وعمار) وبمرور الوقت واستمرار الدأب والقراءة انقسمت هذه المحاولة التجنيسية قسمين هما (المرواة) للنصوص السردية الطويلة، وكان منها (بضع ألفة وخيانة) المنشور في جريدة الجمهورية/1993، ورائحة ظل الفائز بالجائزة الأولى لمسابقة منتدى الأدباء الشباب 1993، وصمت مموسق، وامرأة صوت– ضوئية، والقسم الثاني (الالتماعات) مقترحا أداء سرديا آخر للقصة القصيرة جدا، ونشرت منها العشرات في الصحف العراقية والعربية والدولية، وظل المشروع بلا تأييد حتى نشرت جريدة الأديب البغدادية نصا بموجه قرائي فرعي هو (مرواة) وتوالت الدراسات والحوارات بين مؤيد ومعارض في الصحف الموصلية والعراقية، وجريدة الزمان الدولية، ثمَّ جاء رأي الأستاذ الدكتور عمر الطالب ليحسم دعايات كثيرة، وتجريحات هنا وهناك عندما قال(إن د. عمار أحمد مجدد على مستوى الرواية عامة) في جريدة ومضات جامعية التي تصدرها جامعة الموصل.